الأصالة والتأثير في فن الزخرفة النباتية بين العراق ومصر القديمة
دراسة لنماذج منتخبة

م. غسان مردان حجي النجارّي
كلية الآثار- جامعة الموصل

Abstract

Mesopotamia is the cradle of civilization inhabited by humans since ancient ages People there learned all kinds of acknowledge among which various works of arts. They acquired good experience in ornamentation especially those concerned with trees and plants. The geographic isolation of Egypt, on the other hand, did not prevent it from being in contact with other civilization of the ancient. Near East.

The relationship with ancient Mesopotamia was much more effective. Egypt was affected at that period by ancient Iraqi civilization, and Egyptians could not find any problem to lend and use it. The on who looks at the ornamentations could find and feel the Iraqi and Egyptians artists' elements of plants and trees of which the surrounding nature is rich of. They applied the elements of their artistic works. it is well known that nature is rich of plants as there are different flowers, fruits, herbs and trees. Therefore, this environment became an inspiration for both Iraqi and Egyptian artists. The discovered artistic sights are the basic source of our information for studying the subject of plants ornaments. it shows their features and effects according to the development especially the subjects of originality and effect in the art of plant ornamentation in both ancient Mesopotamia and Egypt.

المقدمة

تعدّ بلاد الرافدين مهد الحضارة الناضجة ، سكنها الإنسان منذ أقدم العصور، وتعلّم في أرجائها معارفه ومنها تنفيذه الأعمال الفنية المتنوعة، فاكتسب خبرات واضحة في مجال الزخرفة ولا سيما زخرفة الأشجار والنباتات. أما مصر فلم تمنعها عزلتها الجغرافية عن الاتصال مع غيرها من حضارات الشرق الأدنى القديم ، وكانت تلك الصلات مع العراق القديم أقوى وأكثر تأثيراً، فقد تأثرت في هذه المرحلة بكثير من المظاهر الحضارية العراقية القديمة التي لم يجد المصريون غضاضة في استعارتها واستخدامها. فإن الناظر في المشاهد الزخرفية يرى استلهام الفنان العراقي والمصري عناصر النباتات والأشجار التي تزخر بها الطبيعة المحيطة به وعمل على تنفيذها من خلال تطبيقها على أعماله الفنية . ومن المعروف أن بلاد الرافدين ومصر القديمة كانت مفعمة بالحياة النباتية وكذلك تتميز بتنوع أشكال الزهور والثمار والسنابل والأعشاب والأشجار بثمارها وألوانها. لذا أصبحت هذه البيئة آنذاك مجالاً رحباً لتأثر الفنان بها في كلا البلدين (مصر والعراق) . إن المشاهد الفنية المكتشفة تعدّ مصدراً رئيساً لمعلوماتنا في دراسة موضوع الزخارف النباتية وبيان خصائصها واتجاهاتها وتأثيراتها تبعاً للتطورات الحاصلة فيها ولا سيما موضوع الأصالة والتأثير في فن الزخرفة النباتية بين العراق ومصر القديمة (دراسة لنماذج منتخبة).

لقد تبلورت العناصر الزخرفية النباتية عبر العصور من حيث تنوع أشكالها وتنوع وحدات المشاهد وانسجامها وتناسقها ضمن قواعد بسيطة تتمثل بالتحويرات والتكرارات التي تعتمد على أسلوب دقيق ومنتظم وكل ذلك نفذ بخبرة متراكمة وجهود واضحة للفنانين في هذا المجال لإخراج الأعمال الفنية بإحساس مرهف ومراعاة الدقة في عملية نقلها من الطبيعة لتصبح بمرور الزمن أكثر انتظاماً وتعبيراً .

يهدف البحث إلى إبراز التأثيرات الفنية المتبادلة بين مصر والعراق، الذي يعدّ مرحلة متطورة في الفنون القديمة. ولأجل إيضاح طبيعة الزخارف النباتية وأهمها على الأعمال الفنية في العراق ومصر القديمة سنستعين ببعض المشاهد الفنية ذات العلاقة في إبراز عناصرها ومنها زهرة البابونج وزهرة اللوتس ، ومن الأشجار شجرة النخيل وشجرة العنب وشجرة الرمان وغير ذلك من النباتات وإجراء نوع من المقارنة في كلا البلدين. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الدراسة تقدم عرضاً لبعض النماذج المنتخبة لهذه الزخارف على المشاهد الفنية ومعرفة مدى تأثر إحداها بالأخرى فضلاً عن الاستدلال على بدايات ظهور الزخارف النباتية، وهاتين المسألتين ذات أهمية في دراسة مثل هذا الموضوع وهي بحث الأصالة والتأثير الفني المتبادل بين الحضارتين. إذ

شهدت منطقة (الشرق الأدنى القديمة) انتقال التأثيرات بين البلدان القديمة وتفاعل مظاهر حضارتها القديمة كالحضارة العراقية والمصرية.

زهرة اللوتس

تعدّ زهرة اللوتس من الزخارف النباتية المهمة التي صورتها مشاهد الفن المصري القديم، كما نفذ شكل هذه الزهرة على الأعمال الفنية الآشورية بكثرة، وخاصة في العصر الآشوري الحديث [١]. ولزخرفة اللوتس أهمية واضحة في تزويق مشاهد الفن وكان إعجاب المصريين بها واضحاً وسميت لديهم (بالبشتين)[٢].

وبالمقارنة العامة بين الطرازين، المصري والآشوري يلاحظ أن الآشوريين كانوا يميلون إلى الضخامة والمبالغة في إنماء أطراف هذه الزهرة واستخدام الخط المزدوج بين أوراقها بخلاف المصريين الذين كانوا يميلون إلى البساطة في إظهار هذه الزخرفة واستخدام الخطوط البسيطة وعدم استخدام الخط المزدوج بين أوراقها [٣].

وتبدو هذه الزخرفة المنفذة بالأسلوب المصري في بعض الأحيان على مشاهد المنحوتات الآشورية [٤]. وبشكل عام تنقسم زخرفة اللوتس إلى ثلاثة أنواع، النوع **الأول** يسمى باللوتس البيضاء، **والنوع الثاني منها** أُطلق عليه باللوتس الزرقاء، **وسمي الثالث** باللوتس الحمراء وأطلق على الأنواع الثلاثة جميعاً عرائس النيل. أما الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة، فيكمن في أن البيضاء والحمراء تبدوان على هيأة مستديرة الأطراف ومتفرقة ذات حجم كبير، وأما الزرقاء فتبدو ذات أوراق مدببة ويكون جذعها مائلاً[٥]. ومن الأمثلة الرائعة لأزهار اللوتس في المشاهد المصرية زهرتا اللوتس البيضاء والزرقاء الملتفتين حول عيدان البردي ، وقد شاع أيضاً استخدام باقات هذه الزهور الطويلة بوصفها شعاراً زخرفياً في الفن المصري القديم[٦] (الشكل رقم١).

ومن المشاهد الرائعة ذات العلاقة مشهد يمثل اختلاف زهرة اللوتس أو البشتين الآشورية عن المصرية إذ تبدو زخرفة هذه الزهرة لدى المصريين بتاج صغير رائع، أما الزهرة الآشورية فتميزت بضخامة أوراقها والمبالغة في إنماء أطرافها الواسعة والخط المزدوج لأوراقها المسننة من الداخل. أما عند المصريين فتلاحظ البساطة في إنماء أطرافها ، وقلة الضخامة في أوراقها إذ تكون بنسبة محددة.

كما يلاحظ في المشهد أن نهايته مزينة بزهرة صغيرة لدى المصريين، أما الآشوريون فيزين المشهد بزهرة كبيرة ضخمة. من دون أي مبالغة ترى الجمال والزينة في المشهد الآشوري، لأن الفنان عمد إلى إبراز الزخرفة والزينة دلالة على التطور الحاصل لدى الآشوريين والتحوير في الزخرفة [٧] (الشكل ٢) كذلك تعبر مشاهد كثيرة أخرى عن هذه الزخرفة ومن هذه المشاهد زهرة بحجم صغير وهي على شكل دائرة ذات لون أسود تعرف هذه بزهرة البشتين الآشورية [٨]

(الشكل ٣). كما أن هناك مشهد آخر يعبر عن زخرفة زهرة اللوتس البيضاء (البشتين) التي امتازت بصفات جميلة ومنها المفتحات الواسعة فضلاً عن فخامة أوراقها مقارنة مع أزهار اللوتس الأخرى. [٩] (الشكل ٤) وبذلك يبدو الفن الآشوري والمصري القديم متشابهين في تنفيذ عملية الزخرفة والتزيين إذ استوحى الفنان المصري القديم شكل هذه الزهرة من النيل المسماة بزهرة اللوتس ونفذها على المشاهد مما يعكس منظراً جمالياً رائعاً يعبر من خلاله عن رونق الفن المصري القديم العريق [١٠].

كذلك تتضح براعة الآشوريين في تنفيذ فنون الزخرفة الراقية على أعمال النحت وغيرها مما يميز مهارة فنانيهم وخبراتهم المتواصلة في تنفيذ الأعمال الزخرفية [١١].

زخرفة العنب

كان للعنب أهمية مميزة في حضارة العراق القديم. إذ حفلت النصوص المسمارية بإشارات كثيرة إلى شهرة البلاد الواسعة في مجال زراعته [١٢]. وجاء ذكره في النصوص المسمارية بالصيغة الآتية (GIŠTIN) ترادفها في الأكدية صيغة (karanu) ونظير هذه الصيغة في اللغة العربية تسمية (الكرم) أو (الكروم)[١٣].

ومن المؤكد أن زخرفة العنب تعود في أصولها إلى العراق وكان لها تأثيرها في الزخرفة المصرية، ولم يقتصر هذا التأثير في العصر الآشوري الحديث على مصر فحسب بل شمل التأثير على الفن الإغريقي وفنون الرومان وغير ذلك من الفنون [١٤]. فقد أصبح لفن زخرفة العنب أهمية عند الفنانين الآشوريين، وأخذت مجالاً واسعاً في نتاجاتهم الفنية، وخاصة في مجال الزخرفة على المنحوتات والرسوم الجدارية [١٥]. وقد اعتنى المصريون القدماء أيضاً بزخرفة العنب في أعمالهم الفنية. ومن الأمثلة الرائعة على ذلك مشهد زخرفي على سقف بيت مصري قديم أدخله الفنان في أعماله الفنية، وزخرفة سقف هذا المبنى مكوّن من وحدتي ورقة العنب أي مزخرف بأوراق العنب ذات مظهر جميل ورائع [١٦]. (الشكل ٥).

وفي مشهد آخر نحتي صُورت فيه حديقة القصر الملكي في نينوى يظهر فيه الملك آشور- بان- ايلي (آشور بانيبال ٦٦٨- ٦٢٧ ق.م) وهو جالس مع زوجته (آشور شرّات) تحت ظلال أشجار الكروم، وقد تميزت مائدتهم بشتى أصناف الطعام في جو بهيج تحت أنغام الموسيقى، وفي المشهد تلاحظ زخرفة أوراق العنب ووحداته وأغصان الشجرة المتسلقة، وقد كان الفنان الآشوري دقيقاً في عملية التنفيذ والنقل من الحديقة الملكية، فتبرز الزخرفة واضحة على مشهد المنحوتة، وبزينة أنيقة جداً [١٧]. (الشكل ٦) كما تظهر في مشهد فني مصري ورقة العنب والتي تعبر عن مهارة الفنان المصري في زخرفة أوراق العنب ووحداته، وأغصان الشجرة المتسلقة ، لذا

كان الفنان دقيقاً في تصوير عملية عصر العنب لتصنيع النبيذ على هذه المنحوتة، كما يعبر المشهد عن مهارة الفنان في إعطاء منظر لائق لمشهد المنحوتة من أجل القضاء على الفراغ وإبراز الزخرفة [١٨] (الشكل ٧). أما ورقة العنب فلم تنفذ زخرفتها على المنحوتات والرسوم فحسب بل أيضاً على الأشكال المعدنية عند الآشوريين ، ومن الأمثلة الرائعة على ذلك تاج من الذهب مكوّن من ثلاثة أسلاك تبدو عمودية وبمسافات متساوية وهي تمثل أشكالاً هندسية جميلة ورائعة في غاية الدقة ، وقد زيّن التاج بكرات مفلطحة الشكل وكبيرة ومحاطة بإطار دائري بارز، ويحيط به أضلاع مثلثة تشكل وردة نجمية كما تتدلى أيضاً أشكال عنقودية سوداء اللون، ويستند مع بعضها، تتوسطها وردة كبيرة ويربط الأوراق والوردة أسلاك دقيقة تتدلى منها أشكال عنقودية سوداء ويستند إلى بدن التاج من الأعلى أشكال لأربع فتيات مجنحة كل فتاة بأربعة أجنحة وضعت على رؤوسها سلك مزين بأوراق عنب مسننة ومتشابكة مع بعضها، تتوسطها وردة كبيرة وتربط الأوراق أسلاك دقيقة تتدلى منها أشكال عنقودية سوداء تمثل ثمار الكروم (العنب) وهي تزين مظهر التاج المصنوع من الذهب [١٩] (الشكل ٨) وهكذا يتضح أن زخرفة ورقة العنب انتقل تأثيرها إلى الممالك الأخرى ليس إلى مصر فحسب بل إلى الإغريق والرومان أيضاً [٢٠].

زخرفة شجرة النخيل

اشتهر جنوب العراق ووسطه بأشجار النخيل ، واعتنى العراقيون القدماء بزراعته لأهميته، ويعدّ النخل من أبرز الأشجار المثمرة في العراق [٢١] ورد اسم شجرة النخيل في النصوص السومرية بصيغة (GIŠHIMMAR) تقابلها في الأكدية (GIŠhimmau) [٢٢]. كان لشجرة النخيل لدى المصريين القدماء أهمية واضحة ولا سيما في المعتقدات الدينية إذ كانت ترمز إلى الفردوس عند المصريين القدماء، وبهذا تتضح العناية الكبيرة لدى الفنان المصري ومدى تأثره بزخرفة النخيل إذ تمثل رمز الحضارة المصرية القديمة، كما أنها رمز لحضارة بلاد الرافدين العريقة [٢٣]. وإن شجرة النخيل وأجزاءها المتنوعة كانت دائماً تنفذ على المشاهد الفنية برفقه التعويذات ولإبطال السحر وتخليص المرضى الذين كانوا يعانون من أمراض نفسية، لذا كانت ترمز هذه الشجرة إلى الخير والبركة [٢٤]. فضلاً عن ذلك حملت النخلة المستوحاة من الطبيعة عند العراقيين القدماء مدلولات روحية بوصفها شجرة رمزية ، وإن زخرفتها تنبثق من قاعدتها أنصاف المراوح النخيلية (البالمت) وترمز إلى زيادة التماسك في وحدة عناصرها المتنوعة [٢٥]. لذا كان يعد هذا العنصر الزخرفي عنصراً مهماً في الزخرفة الآشورية الحديثة، فقد برع الفنان الآشوري في تنفيذه ، وأصبحت هذه الزخرفة إحدى مقومات الفن الآشوري [٢٦]. وهناك الكثير من المشاهد التي ترمز إلى زخرفة النخيل لدى الآشوريين والمصريين ، ويمكن الإشارة إلى نماذج

منتخبة منها ، فمن المشاهد الآشورية مشهد يمثل شجرة نخيل مثمرة حيث تتدلى من على جانبي الشجرة عناقيد التمر وكذلك على جانبيها غزالان إذ تزين زخرفة النخيل هذا المشهد بوضوح [٢٧] (الشكل ٩).

أما المصريون فقد نفذوا هذه الزخرفة بكثرة، ومن المشاهد الرائعة على ذلك مشهد أغصان النخيل وهي تزين جدران المباني المصرية ، ويمثل المشهد النخل الذي كان يترك على الجدران المبنية وفيه أشكال مختلفة من أغصان النخيل ، وهي تمثل خيوطاً أو جذوعاً كانت تمثل مظهراً جمالياً رائعاً في زخرفة واجهات المباني المصرية آنذاك [٢٨].(الشكل ١٠).

ومن الأمثلة الآشورية الأخرى التي تبدو فيها هذه الزخرفة الجميلة مشهد آشوري جميل ورائع يمثل زخرفة النخلة بأشكال متنوعة وتصاميم رائعة تعبر عن قيمة جمالية جذابة بزخرفة النخيل [٢٩]. (الشكل ١١) لذا تعدّ هذه الزخرفة في الفن العراقي من أبدع العناصر الزخرفية وأشهرها، فتميزت بجمالها ، لأنها أكسبت جميع النتاجات الفنية قيماً جذابة إلى جانب وظائفها المتمثلة في دلالاتها الرمزية الدينية [٣٠].

ولا بد من الإشارة إلى أن هناك الكثير من الزخارف النباتية التي تصوّر أشجاراً وزهوراً في بيئة وادي الرافدين وبيئة وادي النيل استلهمها الفنان بوصفها نماذج زخرفية من أجل ملء الفراغ والقضاء على الرتابة إلى جانب إضفاء العنصر الجمالي على المشاهد [٣١].

ومن هذه الزخارف على سبيل المثال زخرفة البابونج وزخرفة الرمان، ومن الأشجار شجرة التين وشجرة الصنوبر وغير ذلك مما تأثر المصريون به في العمل الفني [٣٢].

الاستنتاجات

يتضح مما تقدم وجود بعض التأثيرات الفنية في مجال الزخرفة النباتية بين العراق ومصر القديمة ، وفيما يأتي إجمال لأهم ما توصلت إليه هذه الدراسة :

١ – نشأ فن الزخرفة منذ عصور قديمة وظل الأسلوب الزخرفي ملازماً للإنسان حتى الوقت الحاضر ، وإن اختلفت وسائل التعبير عنه.

٢ – كان الدافع من وراء تنفيذ الزخرفة تنمية الانجذاب نحو كل ما هو جميل ومزين على الأعمال الفنية.

٣ – أظهرت هذه الدراسة وجود التأثيرات الفنية المتبادلة في مجال الزخرفة النباتية بين العراق ومصر.

٤ – هذه الزخارف كانت تهدف إلى إدخال المتعة في النفس البشرية ، واستخدمت أساساً لتزيين الأعمال الفنية في كلتا الحضارتين العريقتين.

٥ – توضح المشاهد الفنية مهارة الفنان في بلاد الرافدين ووادي النيل في تنفيذ الأعمال الفنية بدقة متناهية نتيجة لتراكم الخبرة وتواصها عبر الأجيال.

٦ – إن المتأمل في المشاهد الزخرفية يجد أن بلاد وادي النيل تأثرت بأساليب وموضوعات الزخرفة النباتية العراقية، وهذا ما يدل على عمق الروابط الحضارية بين بلاد الرافدين ومصر القديمة.

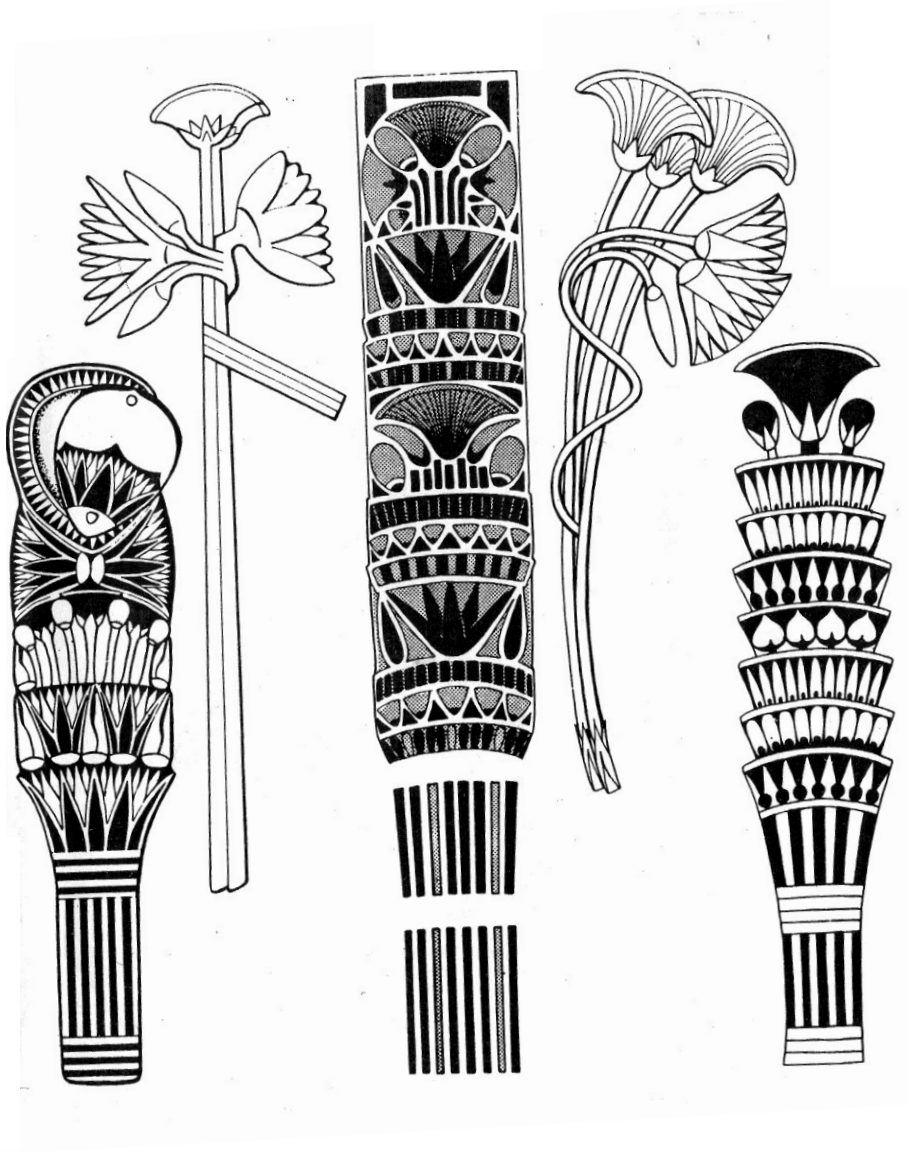

شكل (١)

مأخوذ من: المهدي عنايات، المصدر السابق، ص٤٧.

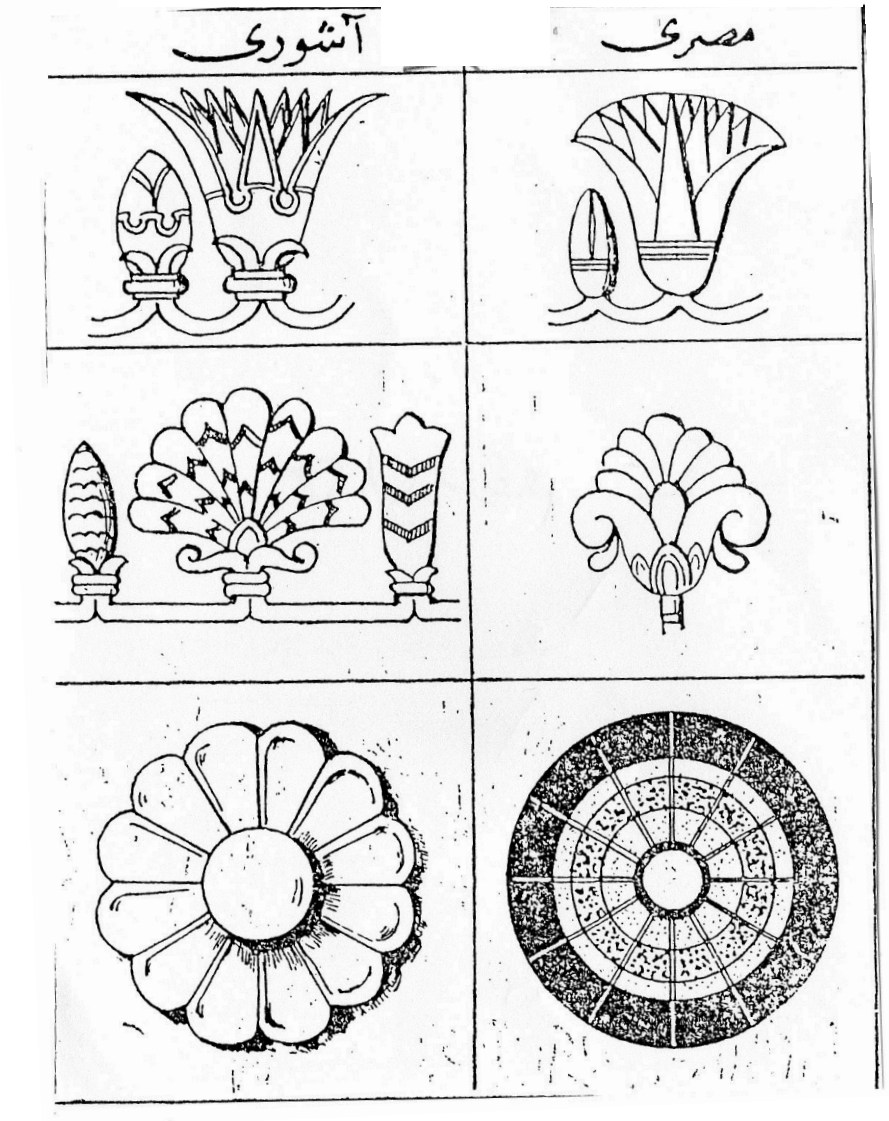

شكل (٢)

مأخوذ من: عابد، عبد القادر، المصدر السابق، ص١٣٨.

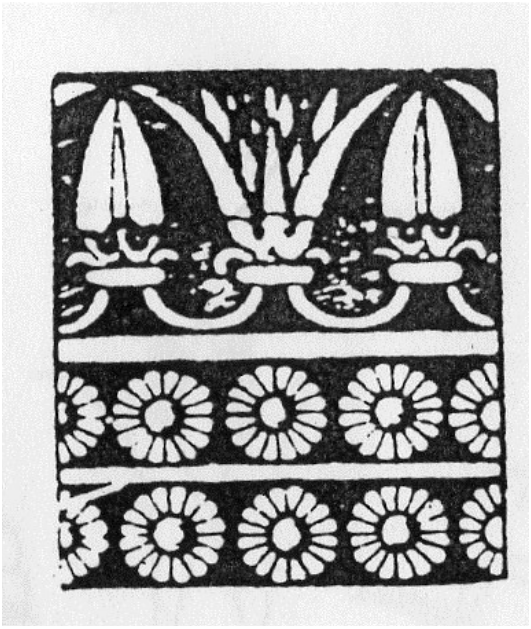

شكل (٣)

مأخوذ من: وهبة، السيد محمد، المصدر السابق، ص١٦.

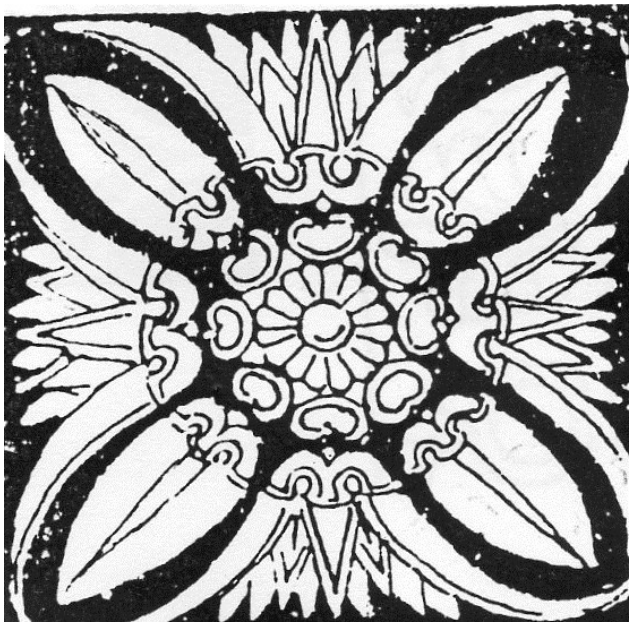

شكل (٤)

مأخوذ من: بهنسي، عفيف، المصدر السابق، ص٤٩.

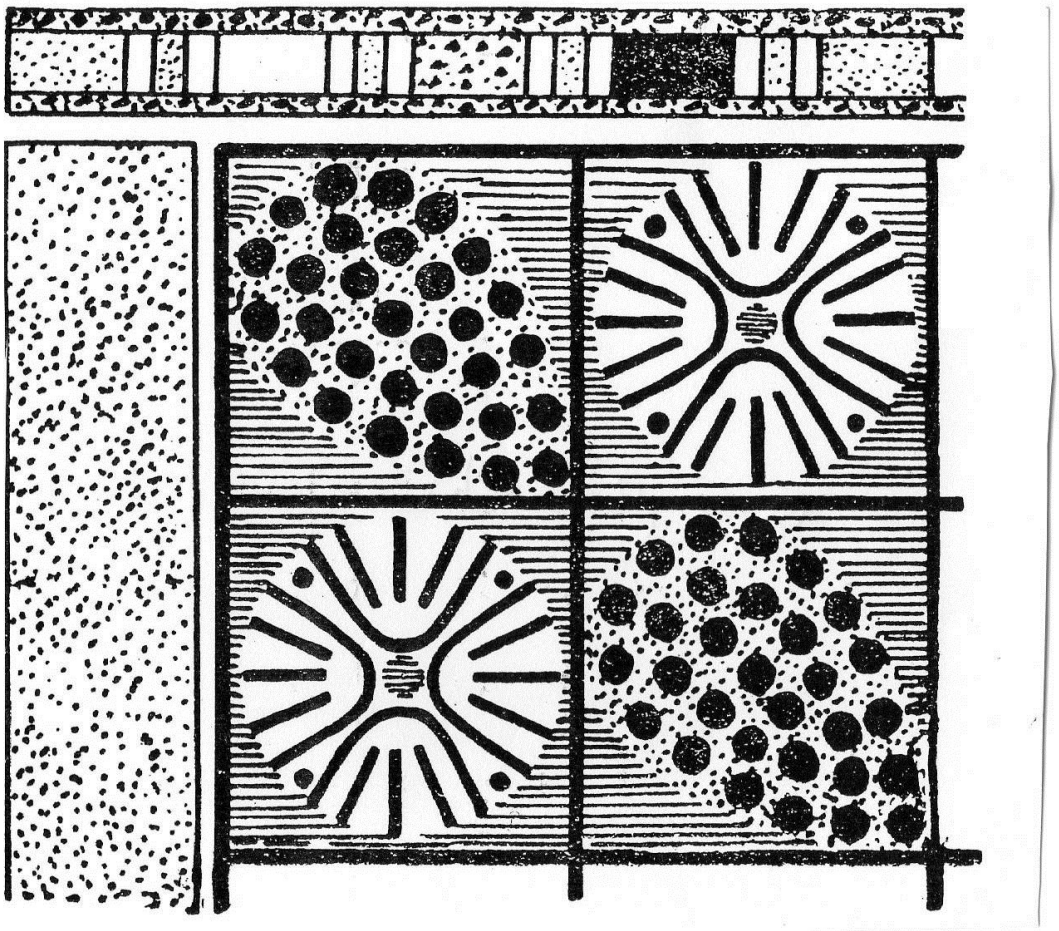

شكل (٥)

مأخوذ من: يوسف، أحمد، المصدر السابق، ص١٧٨.

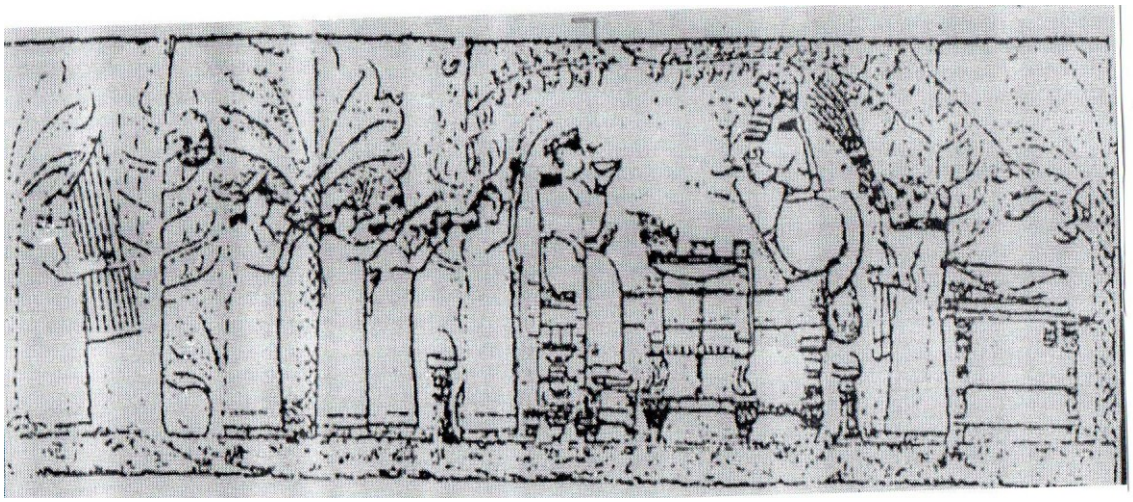

شكل (٦)

مأخوذ من: strommenger,Eva,op.cit,p.246

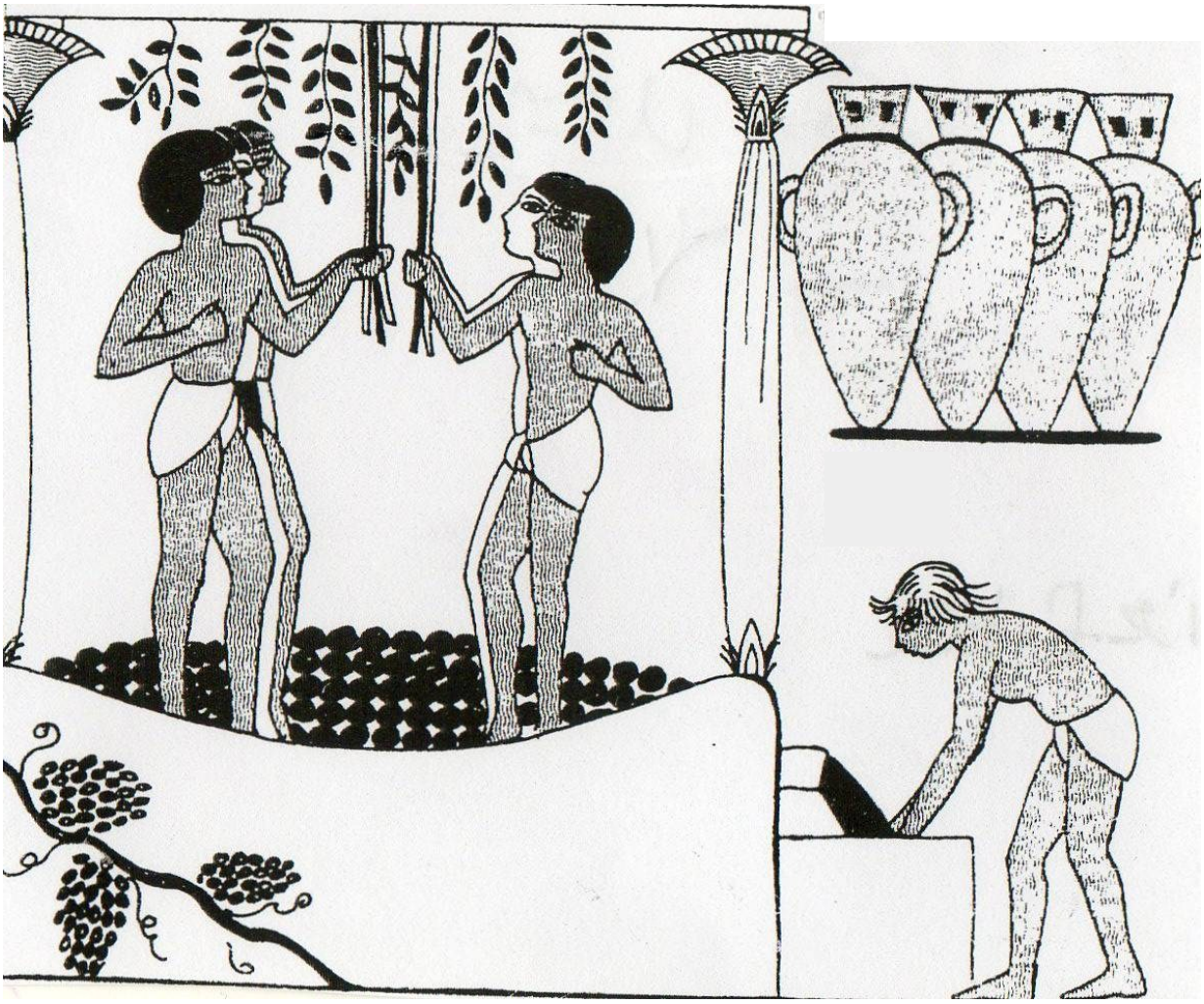

شكل (٧)

مأخوذ من: whit, Jon manchip,op.cit,p.107

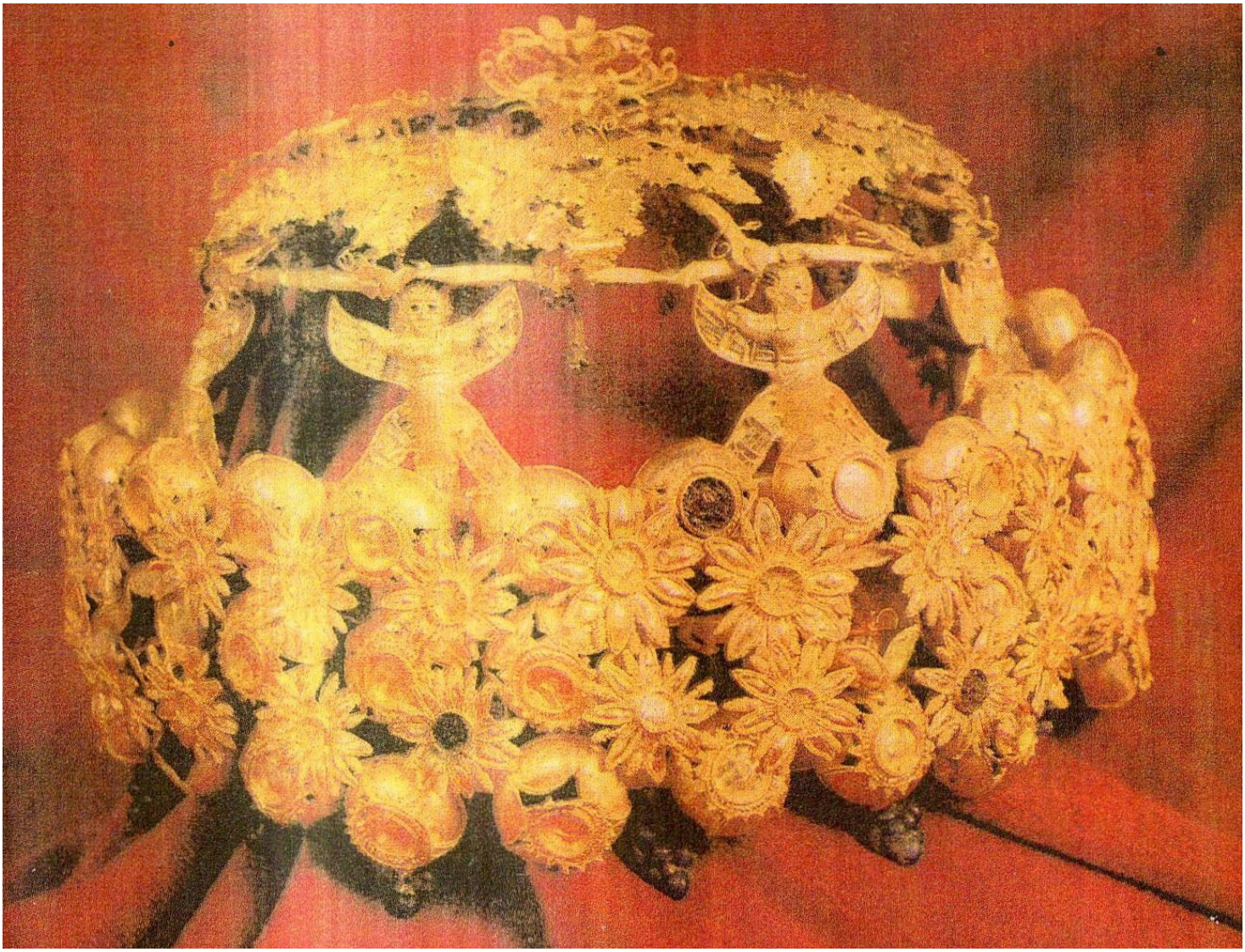

شكل (٨)

مأخوذ من: حسين، مزاحم محمود، وعامر سليمان، المصدر السابق، ص٣٧٣.

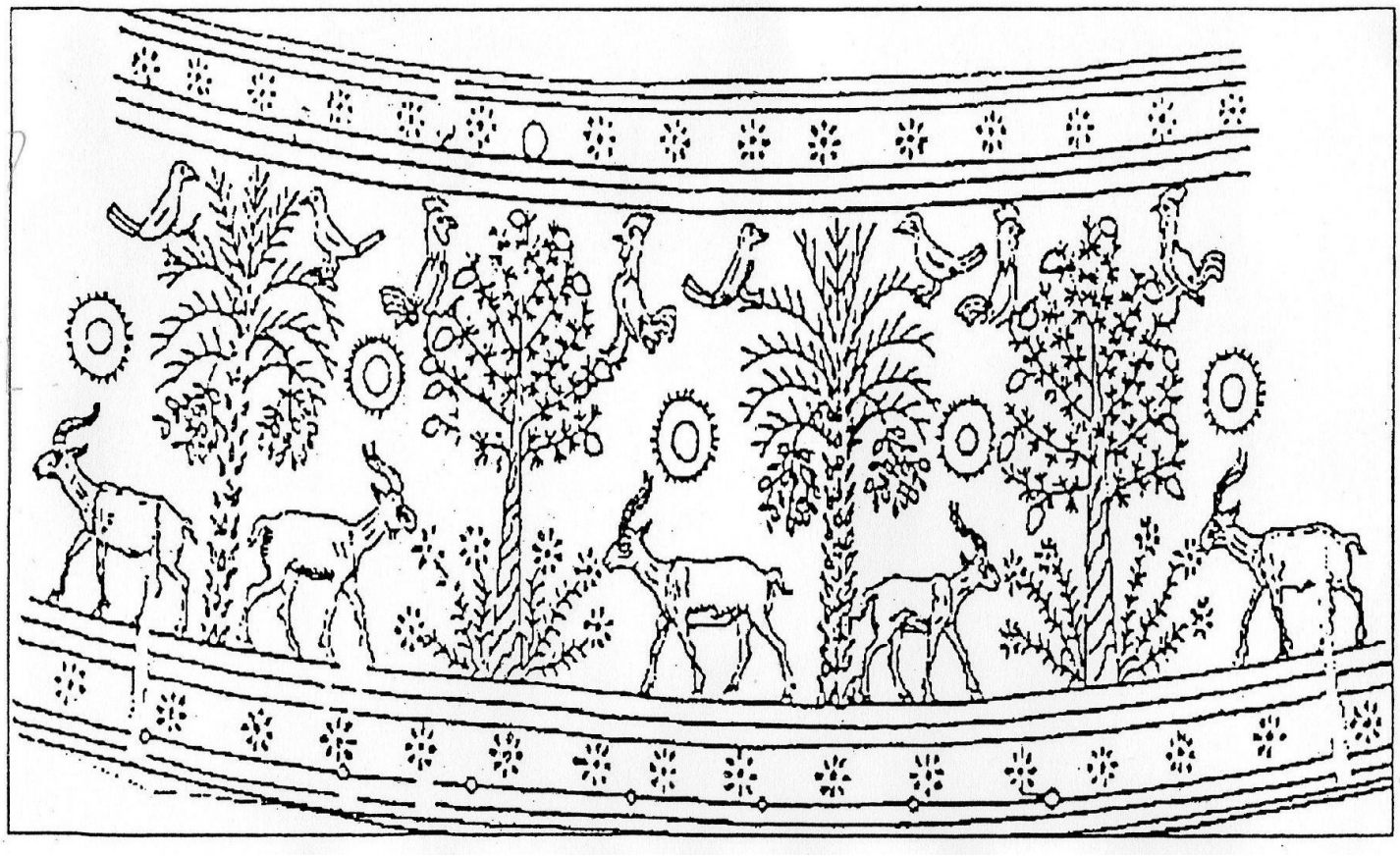

شكل (٩)

مأخوذ من: عكاشة، ثروت، المصدر السابق، ص٥٢٥.

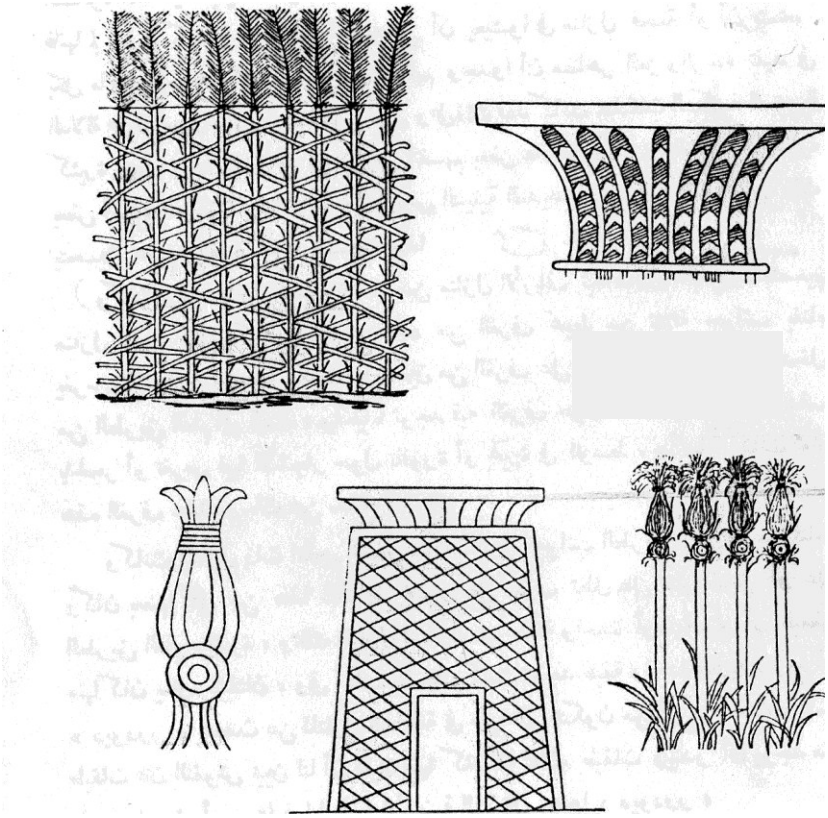

شكل (١٠)

مأخوذ من: كمال، محرم، المصدر السابق، ص١٠.

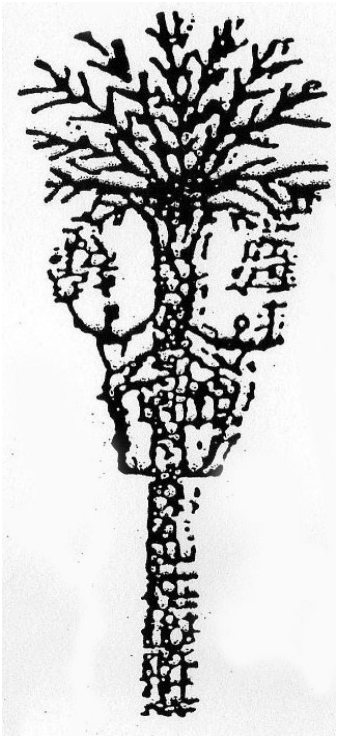

شكل (١١)

مأخوذ من: frank fort,H,op.cit,p.73

الهوامش

Ancient orient, 1 – frankfort, H,the Art and Architcture of U.S.A,1958.P.202
2 – Sasson, Jack, M. civilizations of the Ancient Near East, London.1995.p.37

٣ – عابد، عبد القادر، الأسس العلمية للحفر، مكتبة بيت المعرفة الكويت، ١٩٨٦، ص.١٣٦

٤ – محمد، حامد جاد، قواعد الزخرفة، بغداد، ١٩٨٦، ص.١٣٣

5 – Ragozon, Z.A ,Assyrian farom Rise of the Empire to the fall of Nineveh London,1992.p.22

٦ – المهدي، عنايات، فن الزخرفة، الفرعوني– الآشوري البدائي، القاهرة، ١٩٩٢، ص.٤٧

٧ – عابد، عبد القادر، المصدر السابق، ص.١٣٨

٨ – وهبة، السيد محمد، الزخرفة التاريخية، القاهرة، ١٩٧١، ص.٤٩

٩ – بهنسي، عفيف، تاريخ الفن والعمارة، مصر، ١٩٧١، ص.٤٩

١٠ – النجاري، غسان مردان حجي، العناصر الزخرفية في الفن الآشوري الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة، الموصل، ٢٠٠٥، ص,٢٤

١١ – باقر، طه، الزراعة والبساتين في العراق القديم، مجلة الزراعة العراقية، مجلد٨، ١٩٥٣، ص.٣١١

١٢ – الدليمي، كريم عزيز، الزراعة في العراق القديم، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٨٦، ص.٧

13 – CAD:VOL.11.P.202.
14 – Dalton, o, m: Byzantin Art and Archaeolog, New work, 1911. p.702.

١٥ – الدليمي، كريم عزيز، المصدر السابق، ص.٧

١٦ – يوسف، أحمد، ويوسف خفاجي، فن الزخرفة المصرية القديمة، القاهرة، ب، ت، ص.١٧٧

17 – St rommenger, Eva: the Art of Mesopotamia, London,1974.p.254.
18 – whit, Jon Manchip, Every day life in Ancient Egypt, London, 1963.p.106.

١٩ – حسين، مزاحم محمود، وعامر سليمان، نمرود مدنية المكنوز الذهبية، بغداد، ٢٠٠٠، ص.٣٧٣

20 – Dalton,o,m,op.cit.p.72

* سورة النحل، الآية ٦٧.

٢١ – الجبوري، أسماء عبد الكريم، عباس، النخلة في حضارة العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد ، ٢٠٠٠، ص.٨

٢٢ – لابات، رنيه، قاموس العلامات المسمارية، ترجمة البير ابونا ووليد الجادر، وخالد سالم إسماعيل، ٢٠٠٤، ص٣٦٥. ص.١٦٥

٢٣ – الهاشمي، نسيبة محمد، النخلة في الفنون المصرية الإسلامية، مجلة أكاديمية، العدد ٢٢، السنة السادسة، بغداد، ١٩٩٨، ص.٨٦

24 – Frankfort,H,op.cit.p.142
25 – Smith, wilwiams Tevenson, Inter ctloivs in the Ancient NearEast,London.1995.p.24

٢٦ – جودي، محمد حسن، تاريخ الفن العراقي القديم، بغداد، ١٩٧٤، ص.١٣

٢٧ – عكاشة، ثروت، تاريخ الفن العراقي، سومر – وبابل– وآشور، بغداد، ١٩٦٧– ١٩٦٨، ص.٥٢٤

٢٨ – كمال، محرم، تاريخ الفن المصري القديم، القاهرة، ١٩٩٨، ص.١٠

29 – Frank fort.H,op.cit.p.73

٣٠ – جودي، محمد حسن، المصدر السابق، ص١٨٠.

٣١ – الحيالي، ياسمين ياسين صالح، المشاهد النباتية في الفن العراقي القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، الموصل، ٢٠٠٦، ص.٧٩

٣٢ – جودي، محمد حسن، المصدر السابق، ص١٨١.